الأقليات الدينية في بلاد المغرب ومدى مساهمتها في إزدهار الحياة الاقتصادية من الفتح إلى العهد الموحدي

أ. رشيد باقة
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة الأمير عبد القادر ــ قسنطينة

يعني مصطلح الأقليات الدينية "Minorités religieuses" تلك الجماعات الصغيرة من المواطنين المقيمين في بلد ما، التي تدين بأديان وعقائد غير الدين الرسمي الـــذي تتـــبعه الغالبية الكبرى من سكان ذلك البلد. غير انه فيما يتعلق بالأقليات الدينية التي عاشت أو تعيش في ديار الإسلام. فلقد جرى العرف على تسمية هؤلاء المواطنين "بأهل الذمة" أو "الذميين". وسمّوا بذلك لأن لهم عهد الله وعهد رسوله وعهد جماعة المسلمين أن يعيشوا في كنف الدولة الإسلامية بكل أمان على حياتهم وضـــمان لجمـــيع حقوقهم وممتلكاتهم واحترام ومراعاة لما يؤمنون به من أديان

ومعتقدات من غير جزر ولا إكراه[1]. إلتزاما لقوله تعالى " ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء"[2].

ويدخل ضمن زمرة " أهل الذمة" أتباع الأديان السماوية من غير المسلمين كاليهود والنصارى الذين يعرفون كذلك " بأهل الكتاب". إلى جانب المجوس والصابئة ومن سار في فلكهم من مريدي العقائد الدنيوية[3]. إذ حددت بنود عهود الاستسلام حقوق جميع السكان المحليين وواجباتهم بأن حافظت على شرائعهم وممتلكاتهم في مقابل اعتراف تلك الأقليات بالسيادة العليا للأمة الإسلامية ودفع الضريبة المستحقة عليها الجزية. وهي ضريبة لم يقصد بها الاستغلال أو الإهانة، إنما فرضت عليهم في مقابل فرض ضريبة الزكاة على المسلمين. فهي أشبه ما تكون كما عبر عنها المستشرق الألماني آدم ميتز "بضريبة الدفاع الوطني". يدفعها الرجل القادر على حمل السلاح وتسقط مباشرة على من أسلم أو ضعف[4] .و السياسة الدينية الوحيدة التي اتبعها الإسلام مع أهل الذمة هي أن يمنع على من

---

[1] يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مؤسسة الرسالة ،بيروت ، ط2، 1998،ص 4. منتغمري وات: الفكر السياسي الإسلامي (المفاهيم الأساسية) مترجم، دار الحداثة، ط ، بيروت ،1981،ص 74).

[2] سورة البقرة، الآية 272.

[3] منتغمري وات: الفكر السياسي، ص 76.

Malek Chebel, *Dictionnaire des symboles musulmans*, Paris, Albin Michel,1995.p 136-7.

[4] آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام، مترجم ،ج1 دار الكتاب العربي، بيروت، ص 96.

دخل منهم في الإسلام من العودة إلى ملته السابقة[1]. ويكفي أن نقدم مثالين على تسامح المسلمين مع أهالي البلاد التي فتحوها: أنهم كانوا أثناء الفتح- أي قبل أن يتمكنوا من الاستقرار وبناء مساجد خاصة بهم- يشاركون النصارى في كنائسهم مؤقتا لأداء الصلاة[2]. و كذلك استخدامهم للنقود البيزنطية و الساسانية ، رغم ما احتوته تلك العملات من نماذج وتصاوير وثنية إلى أن قام الخليفة عبد الملك بن مروان (685م-705م) بتوحيد السكة وتعريبها وطبعها بطابع إسلامي[3].

أما عن حال أهل الذمة (اليهود و النصارى) ببلاد المغرب وظروف مجيئهم إليها واستقرارهم بها قبل الفتح الإسلامي لها، فلقد تعددت مصادر روايات المؤرخين وتضاربت أراءهم حول بدايات وفود اتباع هاتين الديانتين إلى المنطقة.

أ-اليهود:

ففيما يخص اتباع الديانة اليهودية، فإن غالبية تلك الروايات ترجع بداية وفودهم إلى هذه المنطقة يكون قد تزامن مع خروج طلائع الفينيقيين من صور وصيدا في هجرة تجارية باتجاه سواحل غرب المتوسط خلال القرن الحادي عشر قبل الميلاد على أساس أن موطن الفينيقيين بالسواحل الشرقية للمتوسط كان مجاورا للأراضي التي كان ينتشر بها وقتذاك بنو إسرائيل. ولما كان الإسرائيليون مولعون بالأعمال التجارية مثل جيرانهم الفينيقيين فإنه من المحتمل أن تكون عناصر يهودية

---

[1] كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية دار الحقيقة، ط3، بيروت، 1983م، ص (115)

[2] - نفسه، ص 23.

[3] Maurice Lombard, *Etudes d'économie médiévales .Vol 1 (Monnaies et histoire d'Axandre a Mohamed)*, Paris, 1971. p 146-8.

خرجت على متن سفن أهل صور وأقامت بمنطقة شمال إفريقية وأمكنها الحال من نشر لغتها ومعتقدها بين سكان تلك المنطقة[1].

ثم لحق بهذه الموجة الأولى من الهجرة اليهودية، موجه ثانية أكثر عدد هربا من الاضطهاد الذي مارسه الإمبراطور الفارسي "بختنصر الثاني Nabuchodonsor II" (597-587ق م) أثناء غزوه أرض فلسطين مع مطلع القرن السادس قبل الميلاد وهدمه هيكل سليمان. وما تبعه من أسر كبير لليهود ونقلهم إلى بابل عاصمته. فيما صار يعرف منذ ذلك الوقت "بالأسر البابلي"[2]. La captivité de Babylone . أما الناجون من بطش بختنصر فقد لاذوا بالفرار باتجاه مصر وليبيا وإفريقية، أين وجدوا مستقرا لهم في المدن التي أنشأها الفينيقيون على امتداد الساحل الغربي للمتوسط والمحيط الأطلس[3] وتوجد روايات فيما يخص يهود جربة التونسية تتحدث عن ظروف مجيئهم إلى هذه البلاد تعود إلى عهد النفي الأول[4].

تدعمت الجاليات اليهودية المقيمة بإفريقية ونوميديا بأعداد كبيرة أثناء مرحلة النفي الثانية التي دارت وقائعها سنة 70م على عهد الحاكم الروماني" تيتس- Titus", الذي تعمد هو الآخر تهديم معبدهم بالقدس. و كانوا قد أعادوا بناءه فور عودتهم من السبي البابلي, وقام بنفيهم إلى خارج فلسطين. إذ تذكر

[1] L. Fillion. cf .-*Histoire d'Israël, peuple de Dieu d'après laBible, (les anciennes traditions et les découvertes modernes)*. T II, Paris, 1917.p. 468 ss.
[2] *La Bible*, Paris, p 1069.
[3] *Historie du développement culturel et scientifique de l'hunanité*, Vol II, UNESCO, Paris, 1967, p 303.
[4] P. J Message, *Le christianisme en Afrique*, vol. 1, Alger, 1914, p. 13

مصـــادر مـــن ذلـــك العهد: أنه حشد ما يقرب من ثلاثين ألف منهم في سفن وأرسلها إلى ولاية أفريقية وموريطانيا[1]. وقد أشار المؤرخ الروماني "سترابون "إلى انتشار العناصر اليهودية في مدائن شمال إفريقية وجزر المتوسط قائلا: "من الصعب أن تجد مكانا لا يسكن فيه اليهود[2]."

وباعتـــناق أباطرة الرومان المسيحية وجعلها الديانة الرسمية للإمبراطورية واجهـــت البقية المتبقية من العناصر اليهودية في فلسطين مرة أخرى متاعب جديدة بأن هدموا معابدهم وحرموا عليهم دخول أرشليم مما دفع بالقادرين منهم بسبب مـــا لحق بهم من جراء تلك الكوارث إلى التوجه صوب البلاد التي تقل فيها وطأ المعانـــاة من سياسة أباطرة الرومان المتعصبين. فانتقل بعضهم إلى العراق وفارس وبعضهم توجه إلى جزيرة العرب أين عاشوا في سلام وحرية دينية مع بني جنسهم الساميين، وأضحت لهم أقاليم برمتها مثل خيبر ويثرب[3]. ومنهم من عبر البحر الأحمر إلى بلاد الحبشة.[4] فيما هاجرت غالبيتهم إلى سواحل غرب المتوسط ولحقوا بإخوان لهم سابقين في هذه الديار حيث تضاعف عددهم بسرعة. وإلى هذا العهد يعـــود انتشـــار عقيدهم بين بعض القبائل البربرية، مثل جراوة التي تسكن جبال

[1] وول ديورنت: قصة الحضارة، ، دار الجيل، بيروت، ج 11، ص 190.

[2] نفسه

[3] نفسه،ص 8.

[4] نفسه،ص 8ـ9.

الأوراس وإليها تنتمي الكاهنة، وكذلك نفوسة برابرة إفريقية، وفنذلاوة، ومديونه وهلوله وغياصة وبني فزان برابـــرة المغرب الأقصى[1].

ب– النصارى:

أمـــا النصارى فنظرا لأن عقيدتهم ولدت بفلسطين وورثت عن اليهودية تعالـــيم العهـــد القديم (التوراة) وأضافت إليه العهد الجديد (الإنجيل). فكان من الطبيعـــي أن تتشـــكل الـــنواة الأولى لمعتنقـــي النصرانية الأوائل من زمرة اليهود الإسرائيليين المقيمين بفلسطين. وتبعا لذلك فقد أطلق هؤلاء المتدينون الجدد على أنفســـهم اسم "إكليزيا Ecclisia[2] وهي الكلمة التي استخدمتها الترجمة السبعينية للتوراة وتعني "شعب الله المختار من بني إسرائيل"[3].

ومن فلسطين أخذت هذه العقيدة تنتشر باتجاه الشرق والغرب على طول الطـــرق الـــتجارية وساعدها على الذيوع منذ بواكير تاريخها يهود الشتات أو الدياسبورا " Diaspora "الذين كانوا يعيشون في كبريات مدن البحر المتوسط، مما

---

[1] Ibn Khaldoun : *Peuples et nations du monde*, extrait des 'Ibar traduit de l'arabe et présenté par Abdesselam Cheddadi ; Paris, Sindibad, vol. 1986, p. 490. G. Bonet, Maury : *L'islamisme et le Christianisme en Afrique*, Paris, Hachette, 1906, p. 8-9.

[2] 17إكليزياEkklisia باللغة اليونانية تقابلها Ecclisia باللاتينية، Eglise بالفرنسية، كنيسة ، بالعربية وهذا المصطلح يعني بالمفهوم الديني الجماعة المؤمنة.

[3] سميت بالترجمة السبعينية « Septuaginta » لأنه اجتمع سبعون حبرا من أحبار اليهود على ترجمة العهد القديم إلى اللغة اليونانية التي كانت منتشرة في شرق الإمبراطورية في ذلك العهد،للمزيد راجع:

-تـــورمان كانـــتور: الـــتاريخ الوسيط، قصة الحضارة، البداية و النهاية، مترجم،القسم الاول، دار المعارف القاهرة.ص56

جعل مؤرخي الكنيسة الأوائل ينظرون إلى حادثة تشتت اليهود على أنه تمهيد إلهي لنشر المسيحية[1].

ويعتقد إن إفريقية الرومانية زارها بعض الحواريين. -صحابة النبي عيسى عليه السلام -على غرار روما والإسكندرية وإنطاكية وجهات أخرى من العالم وظهرت بها أول كنيسة إفريقية على عهد هؤلاء الرسل، وإن ظلت غير ظاهرة تعمل في الخفاء إلى غاية القرن الثاني للميلاد، بسبب الاضطهادات التي حاقت بالمؤمنين بهذه العقيدة من جهة،ثم بسبب الخلافات المذهبية التي فرقت وحدة الجماعة المسيحية لهذه المنطقة من جهة ثانية[2].

ومن المعلوم أن البربر الذين عاشوا -قبل نزول المسيحية بأرضهم - عهودا طويلة في صراع ضد الرومان للتخلص من الهيمنة الاستعمارية فإنهم وجدوا في تعاليم العقيدة المسيحية السمحة ملاذا للتعبير عن رفضهم المطلق الخضوع لأوامر الأباطرة والحكام الرومانيين. لذلك كان أمرا طبيعيا أن يختار أمراء البلاد المحليين والحال على هذا المنوال أكثر المذاهب المسيحية تطرفا ومعارضة للسياسة العامة لحكام الدولة الرومانية كالأريوسية[3] Arianisme والدوناتوسية[1] Donatisme

---

[1] J. Mathiex, D. Moreaux, p. Mougenot : *La civilisation européenne, Dictionnaire culturel ,historique ,géographique*, Paris, Bordas ; 1994, p. 181.

[2] أظهرت مجموعة من النصوص الأدبية والنقوش أن عددا كبيرا من المسيحيين قتلوا بقرطاجة سنة 180 م.للمزيد راجع:

-A.G. Hamman, *Les premiers martyrs de l'Eglise*. Paris, Descleé, 1979,p 60-2

[3] الأريوسية: مذهب اشتق اسمه من "أريوس" اسقف مدينة الإسكندرية، أصر على التمييز الشديد بين الله و المسيح وبمعنى أدق أنكر ألوهية المسيح.

كوسيلة للتعبير عن خصوصيتهم وتطلعهم إلى الاستقلال. من خلال الاعتراض والتمرد على التعليمات الرسمية الصادرة عن الحكام الكاثوليك في روما . وقد بلغت كراهية البربر للسلطة الرومانية حدا أن علق أحد المؤرخين على ذلك بقوله :"إن البربر ما دخلوا أولا في المسيحية إلا لكون الرومان وثنيين، فلما أقبل الرومان عليها خالفهم البربر وأسسوا لأنفسهم مذهبا جديدا و قد وجدت قبائل الوندال الأريوسية في أهواء البربر الجانحة إلى الانفصال عن الرومان خير معين لهم على اكتساح أرض شمال إفريقيا وانتزاعها من أيدي الرومان الكاثوليك .كما سيظل عالقا بالأذهان أن الوندال حاصروا مدينة القديس أغسطس – فيلسوف المذهب الكاثوليكي – إلى أن مات بها في 28أوت من سنة 430م [2]. وبحلول العقد الخامس من القرن الرابع كانت ولاية شمال إفريقية الغنية قد صارت مملكة للوندال.

---

[1] الدوناتوسية:حركة دينية متطرفة ظهرت عقب الاضطهادات التي مارسها الإمبراطور دقلديانوس (288-306م) ضد المؤمنين بالمسيحية .رفض أتباع هذه النحلة الانقياد وراء الأساقفة الذين تخاذلوا واستسلموا أيام الاضطهاد.من مبادئ هذه الحركة الدعوة إلى إقامة كنيسة مقدسة طاهرة في مواجهة كنيسة فاسدة وخاطئة (une Eglise sainte contre une Eglise corrompue et provocatrice) .لكن سرعان ماجرّها تطرفها هذا إلى الانزلاق في المعارضة السياسية عندما رفعت شعار المناهضة للسلطة السياسية والمطالبة بالحقوق الاجتماعية.

[2] تذكر المصادر أن الوندال الأريوسيين لماغزو شمال إفريقية اضطهدوا الكاثوليك ووجهوا بذلك ضربة قاصمة للكنيسة جمعاء .وتروي المصادر أن هنّريك Hanneric ابن الملك جنسريك أنه قتل تسعين أسقفا .وأن "ثراسمند – Thrasamund–نفى منهم (120 أسقفا من أصل 400).للمزيد راجع :

- Decisier,p : *La situation de L'Eglise en Afrique du nord après la conquête Arabe et les cause sa disparition*. Texte dactylographié 1988, Bibliothèque, Dilou, Constantine .p 1-2

-Lancel,s, Mattei,p : Pax et Concordia, Chrétiens des premier siècles en Algérie, III-VIIs), Alger. 2003, p. 99-100.

ولم يستطع البزنطيون- الروم الأرثوذكس -رغم انتصارهم الكاسح على الوندال سنة 534م من تأسيس دولة عزيزة الجانب بشمال إفريقية بسبب جفاء العلاقات بينهم وبين أهالي المنطقة.. ولحق الاضطهاد مرة أخرى، أبناء البلد من اليهود وأتباع النحل من الدوناتوسيين والأريوسيين. فكانت هذه السياسة من أقوى عوامل الخراب في هذه الفترة، التي تركت أثرها السيئ على مناحي الحياة بأن عمت الفوضى و انعدم الأمن وخاف الناس وصاروا يكرهون البيزنطيين. ولهذا السبب لم يجد الإسلام الذي طرق أبواب إفريقية في خمسينات القرن السابع الميلادي أية صعوبة في استقطاب أهالي البربر إلى حضيرته بسبب تذمرهم الشديد لما لحقهم من اضطهاد ديني على يد الروم الأرثوذكس[1]. وقد علق "ستيفان قزال" على هذا النجاح الباهر الذي حققه المسلمون في القطر الإفريقي قائلا: "هذا القطر الذي تقاتل عليه الشرق و الغرب وترك به كل طابعه و الذي اختلط فيه الرومان والروم ليغرسوا به المسيحية أصبح من هذا الحين (يعني الفتح العربي) كله شرقيا وانقضى بذلك عصر الاتحاد اللاتيني الذي شمل حوض البحر المتوسط.[2]

حال الأقليات الدينية ببلاد المغرب بعد الفتح

أما فيما يتعلق بوضع الأقليات الدينية ببلاد المغرب الإسلامي وبخاصة اليهود والنصارى سواء من البربر الذين اعتنقوا هاتين الديانتين منذ وقت طويل. أو من أحفاد الرومان الذين يعرفون باسم "الأفارقة. Les Afriqs"[3] أو من

---

[1] Gustave Le Bon : *La civilisation des Arabes*. IMAG Syragus., p. 95-6.

[2] بعد أن تعذر علينا الوصول إلى كتاب ستيفان قزال فقد اكتفينا بما نقله عنه، العلامة مبارك الميلي في كتابه تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ص 414.

[3] Al-Idrisi, *Description de l'Afrique septentrionale*. Hesperis, p. 89.

العناصر اليهودية والقبطية التي جاءت من مصر إلى بلاد المغرب إبان الفتح وبعده للمساهمة في تصريف شؤون ولاية المغرب الفتية[1]. فهؤلاء كلهم لم يشعروا بالضيق في معايشتهم للمسلمين، بل استقامت لهم الدنيا في ظل الإسلام وعاشوا عيشة رغدا بالحواضر والقرى جنبا إلى جنب مع المسلمين. فلم تخصص لهم جيتوهات كما كان عليه الحال في بعض جهات أوربا وقتذاك[2]. كما لم توضع قيود على أنشطتهم الدينية أو الاقتصادية. تشهد على ذلك مصادر بابوية من القرن العاشر فيما أشارت إليه : من انه كان يوجد ببلاد المغرب حتى هذا الوقت أربعون مدينة أسقفية[3] Villes épiscopales. ولا يحتاج هذا الخبر إلى تعليق إذا علمنا أن منصب الأسقفية في الديانة المسيحية يعد من أعلى المناصب الدينية الذي لا يمنح ألا للمدن الكبيرة التي يوجد بها أعداد كبيرة من الاتباع والمريدين. ويؤكد البكري الذي عاش في نهاية القرن الحادي عشر من جهته , هذه الحقيقة فيما يروى أنه كان على عهده بإفريقية حواضر بأكملها يسكنها مسيحيون ينحدرون من اللاتين الذين يعرفون بالأفارقة[4]. وربما كان قسطنطين الإفريقي الطبيب المشهور الذي يرجع له

---

[1] الخليفة عبد الملك بن مروان بعث إلى أخيه عبد العزيز والي مصر، بأمره أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهلهم وولدهم وأن يحملهم من مصر ويحسن عهدهم وكتب إلى حسان بن النعمان بأمره أن يبني لهم دار الصناعة كون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر..." للمزيد راجع.

-Al. Bakri : *Kitab al-masalik wa-l-mamalik*, trad française de Slane : *Description..de l'Afrique septentrionale* , Alger, 1913, P 38

[2] آدم متز: المرجع السابق، ج I ص 93.

[3] H. R. Idris, *La Berbérie orientale sous les Zirides*, Paris, Maisonneuve, vol. II, 1962, p. 758.

[4] Al-Bakri, *op. cit.*, p. 120.

الفضل في نقل علوم الطب العربي من بلدته الأصلية تونس (ولد بها سنة 1052م) إلى "سالرنو" بجنوب إيطاليا من هؤلاء الأفارقة[1].

ومما يدل على قوة الجماعات المسيحية ببلاد المغرب ووفرة عددها ونفوذ سلطانها: محاولة أسقف مدينة المهدية الانفصال عن الفاتيكان ومحاكاة جاره في الإسكندرية بالدعوة إلى عقد المجامع الدينية والإشراف على تعيين الأساقفة وهي صلاحيات من اختصاص بابا روما، مما اغضب كثيرا الزعامة الدينية في الفاتيكان[2].

أمـــا علـــى صعيد العلاقات بين الأقليات الدينية والحكومات المحلية ببلاد المغـــرب حتى العهد الموحدي- إذا ما استثنينا فترة عابرة عكرت صفاء أجواء هذه العلاقـــات أثناء حكم المرابطين- فالمصادر كلها تجمع على أن أهل الذمة في شمال إفريقيا وجدوا في ظل الحكم الإسلامي لها كل أسباب الراحة والأمن والاستقرار. فلـــم توضع عليهم قيود ولا شروط لا فيما يتعلق بمسائل العقيدة ولا فيما يخص أمـــور الأحـــوال الشخصية. بل استمرت الحالة السابقة للفتح في جميع المجالات واســـتمرت معها المؤسسات والأجهزة الإدارية قائمة. وبقي غير المسلمين يديرون شؤون المال والإدارة والأعمال الكتابية في دواوين الحكومة. ولم تستطع الدول التي تعاقـــبت على بلاد المغرب الاستغناء عن خدماتهم. ونشأت مع مرور الوقت من بينهم أرستقراطية تملك المال والعقار، ووصل بعضهم إلى المناصب العليا في الإدارة والـــوزارة وبنوا لأنفسهم مكانة ومجدا في هرم الدولة[3]. لدرجة أن بعض الفقهاء

[1] H. R. Idris, *op. cit.*, vol. II, p. 759.
[2] S.Hunke: *Le soleil d'Allah brille sur l'Occident , notre héritage arabe*, Paris, Albin Michel, 1963, p. 176-7.
[3] S. D, Goitein : *Jews and Arabs their contact though the ages*, N.Y 1964, p. 89-124.

ذهـــبوا إلى إصدار فتاوى تجيز لأهل الذمة الاشتغال في الإدارات التنفيذية وتحرم عليهم تقلد المناصب بوزارات التفويض.

وفي ظـــل حكـــم العبيديين بلغ التسامح الديني مع أهل لكتاب إلى أبعد حـــدود حتى صار الاعتماد على خدمات هذه الفئات وبخاصة اليهودية منها يأتي علـــى رأس أولـــويات العمل السياسي لدى الحكام الفاطميين . وجوهر المعروف "بالصـــقلي " الذي غزا مصر وبنى القاهرة واحد من هؤلاء الذميين [1]. لدرجة أن العامة من المسلمين أكلها الحسد وهي ترى تبجيل اليهود عليها في شؤون الإدارة والمـــال فأطلقت العنان لألسنتها تقذف بالشائعات التي تشكك في إسلام الحكام الفاطميين وأخطرها تلك التي ترجع أصولهم إلى اليهود[2].

كـــذلك أيدى الصنهاجيون الذين أقطعهم الفاطميون ولاية المغرب عندما انـــتقلوا إلى مصـــر مكافأة على إخلاصهم لهم تعاطفا كبيرا تجاه الأقليات الدينية فمـــنحوهم الامتيازات وفتحوا أمامهم أبواب البلاد وجعلوا منهم الخدم والحشم

---

[1] اخـــتلفت الأراء حول جوهر الصقلي، الذي كان من موالي المعز لدين الله الفاطمي، وقد سيره على مصر فدخلـــها ســـنة 358 هـــ، ثم بنى القاهرة سنة 360 هـــ، وجامع الأزهر سنة 361هـــ البعض يعتبرونه يهودي، والبعض الآخر يقولون أنه مـــيحي، للمزيد راجع:

-ول ديورنت: قصة الحضارة، مج 11، ص 270.

-Mann, T : *The Jews in Egypt and Palestine, under the Fatimid Califes*, T1, p. 270

[2] S. M. Stern : «Islamic Propaganda and Fatimid Rule in Snid, Islamic Culture,1949, p. 122 ; Mazahiri Ali, La vie quotidienne des musulmans au Moyen- âge, Paris, Hachette, 1959 126,.

- L. Gardet: *Les hommes de l'islam, Approche des mentalités*, Bruxelles, 1984, p. 99.

والحريم. فكانت غالبية أمهات ملوك بني زيري بإفريقية مسيحيات[1]. ويحتفظ التاريخ بخصال إحداهن ممن كان لها حضوة ومكانة في قصر باديس. إنها حاضنته ومربيته (فاطمة) التي كانت لها اليد العليا في إدارة شؤون البلاد. كما أن طبيبه الخاص كان يهوديا يدعى (إبراهيم بن عطا) وهو في ذات الوقت "ناجد"، أي رئيس الجماعة اليهودية[2]. وفي عهد حفيده تميم بن المعز، الذي تربى هو الآخر بين جدران قصر يعج بالجواري المسيحيات، زاد في إكرام النصارى وفتحت أبواب الإدارة على مصراعيها أمامهم حتى صار لا يعمل شيء في "بلاط تميم" إلا بمعونتهم. فكان جيشه يضم مليشيات كبيرة من المسيحيين.[3] أما الذي كان يشرف على إدارة بيت المال "خزينة الدولة" في عهده فهو (جورج الانطاكي) الذي استغل على ما يبدوا فرصة وجوده في هذا المنصب الحساس ونشط في عملية التجسس ونقل الأسرار والمعلومات إلى النورمند في صقلية أعداء الدولة الزيرية. بدليل انه انتقل فيما بعد للعمل في الجيش النورماندي. وهو الذي تولى قيادة الأسطول الذي غزا المهدية في عهد حكم "روجار الثاني" سنة 1123م[4]. و لا أدل على تمكن أهل الذمة من المسيحيين و اتساع نفوذهم في بلاط بني زيري على عهد "تميم". الشهادة التي أوردها "ابن الأثير" على لسان مبعوث يحي بن تميم،

[1] Rachid Bourouiba, « l'esprit de tolérance chez les Zirides, les Hammadides et les Normands de Sicile", *Acte du 2e congres internationale d'étude des culture de la Méditerranée occidentale*, SNED, 1978, p. 252.
[2] H. R. Idris, « les fêtes chrétiennes célébrées en Ifrîqiya a l'époque Ziride", *Revue Africaine*, 1954, p. 272-339.
[3] R. Bourouiba, *op. cit.*, p. 252.
[4] H. R. Idris, *La Berbérie, op. cit.*, vol. I, p. 334-337.

إلى "الناصر الحمادي" أمير بجاية، جاء فيها: « إن تميم قد أضحى رهينة لعبيده من المسيحيين فمنحهم كل شيء و لم يعط صنهاجة شيء."[1]

الأقليات الدينية والشؤون الإقتصادية ببلاد المغرب:

ترجع أهمية منطقة شمال إفريقيا إلى موقعها بين ملتقى طرق التجارة الدولية التي ربطت عبر العصور أجزاء القارات الثلاث التي يتألف منها العالم القديم. الشيء الذي جعل منها منذ فجر التاريخ مستودعا للسلع المتبادلة بين تلك القارات ومحط أنظار المغامرين للسيطرة عليها والاستفادة من مكاسب تلك التجارة العالمية التي تمر عبرها.

وهكـــذا فعندما وطئت أقدام الفنيقيين أرض أفريقية منذ القرن الثاني عشر قـــبل الميلاد، وتأسيسهم فيما بعد لمدينة قرطاجة 813 ق.م كان في نيتهم بسط نفوذهم على هذه المنطقة التي تتوسط العالم القديم حتى يتسنى لهم جمع كل النشاط الـــتجاري العالمي بين أيديهم. وأدى تحكم الفينيقيين في خطوط المواصلات البرية والبحـــرية بين الشرق و الغرب والشمال والجنوب إلى ازدهار عاصمتهم قرطاجة الـــتي أضـــحت عروس المتوسط بلا منافس لمدة ألف سنة أو تزيد[2]." لدرجة أن "ســـبيون إميليان" قائد الجيوش الرومانية وهو يحاصرها سنة 146 ق.م، بكى من شدة حصرته عليها عند ما تلقى أمرا بحرقها[3].

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ مجلد9، ص 361

[2] *Histoire du développement culturel et scientifique de l'humanité*, Paris, Unesco, vol. II, P 431.

[3] تاريخ الحضارات العام، المجلد II، منشورات عويدات، ط1998،4،ص 65.

وسرعان ما اجتذبت المدن والمراكز التجارية التي أنشئها الفينيقيون على طـــول الســـواحل الغربية للمتوسط جاليات من المشارقة وفي طليعتهم السوريون واليهود للمساهمة في هذه التجارة المربحة. ونشط هؤلاء الشرقيون في تلك المراكز التي كانت على صلات وثيقة ببلادهم في عملية استيراد وتصدير السلع من وإلى جميع جهات المعمورة. فمن الهند والصين كانت السفن تخرج معبأة ببضائع الترف كالستوابل والأنبذة الفاخرة والأقمشة الحريرية والمنسوجات الثمينة التي تستخدمها الطـــبقات الراقية في الغرب[1]. ومن إفريقية جنوب الصحراء كانت قوافل الجمال تـــنطلق مـــن أطراف بحيرة تشاد ونهر النيجر وجنوب النيل محملة بالرقيق الأسود وريـــش النعام والعاج والأحجار الكريمة باتجاه موانئ المتوسط.. وإلى هذه التجارة الصحراوية المشهورة التي كانت قائمة بين تجار حواضر الساحل الشمالي الإفريقي وسكان مناطق جنوب الصحراء الكبرى أشار في القرن الخامس قبل الميلاد الرحالة اليوناني "هيرودوت" في فصل من كتابه *Historia*" وسماها بالتجارة الصامتة[2].

وفي عهـــد الرومان الذين عاد إليهم إرث الحضارة الفينيقية على ضفاف المتوســـط بعد سقوط قرطاجة سنة 146 ق.م ازدهرت الحياة الاقتصادية بإقليم شمـــال إفريقيا وصارت روما تعتمد كلية في معيشتها على ما تدره هذه المنطقة من غلال واستحقت بذلك لقب مطمور روما بامتياز[3]. وكان على رأس هذا الرخاء

---

[1] Moscat, Szonycer : « l'Expansion Phénico-punique en Occident » *Actes du 2 congrès international, Alger*, 1978, p. 11.

[2] Gilbert &Colette ; ch, Picard, *La vie quotidienne a Carthage au temps d'Hannibal, III^e siecle*, Paris, Hachette 1958. p. 17-19; Raymond, Furon : *Manuel de préhistoire général* ; Paris, Payot, 1958, p. 442-3.

[3] M. Maurcy,:*Précis de l'histoire et du commerce de l'Afrique septentrionale depuis les temps anciens jusqu'aux temps modernes*, Paris, 1852. p.76.

المستعاد مدينة قرطاجة التي أعيد بعثها من جديد على عهد الإمبراطور أغسطس حوالي 27 ق م. كما نشأت من رواج هذه التجارة مدن أخرى على طول الساحل الشمالي لإفريقية. كطرابلس وحضرموت وتكابس وهيبون ريجيوس (مدينة القديس أغسطين) وإلى جنوبها في الداخل قسنطينة عاصمة ولاية نوميديا وإلى الغرب منها تيمقاد إلى جانب قيصرية (شرسال) عاصمة موريطانيا الشرقية وطنجة عاصمة موريطانيا التينجيتانية[1].

ولا شك في أن نجاح الفتوحات الإسلامية التي تمت في زمن قياسي يرجع بالدرجة الأولى إلى الحرية التي كفلها المسلمون لأهالي البلاد المفتوحة، بحيث لم يحدث انقطاعا في مجرى الحياة العامة لدى مختلف الشعوب التي طالتها عملية الفتح، و لم يترتب عنها أي انقلاب في الأوضاع الاقتصادية لجماعة الذميين ,بل استمرت الحالة السابقة للفتح في جميع المجالات واستمرت معها المصانع والحرف والفنون بدون تغيير يذكر. كما أعان على استقرار النشاط الاقتصادي وازدهاره اعتماد المسلمين لنظام جديد للضرائب أكثر عدالة من النظام الذي كان قائما إبان حكم الرومان[2].

وتحتفظ وثائق الجنيزة[3] التي تم اكتشافها بمعبد الفسطاط اليهودي بمصر القديمة على مجموعة كبيرة من العقود والمحاضر والخطابات التي تتعلق بالنشاط الاقتصادي الذي كانت تقوم به الجاليات اليهودية بالعالم الإسلامي. وربما كانت

---

[1] Message, *La Romanisation de l'Afrique du Nord*, p. 42- 5.
[2] André Fattal, *Le staut légal des non musulmans en pays d'Islam* , Beyrout, 1958, p. 144-60.
[3] S.D Goitein: « The main industries of the Mediterranean Area as Reflected in the Records of Cairo Geniza», *JESHO*, 4. 1961. p. 168.

أهم حقيقة كشفت عنها وثائق جنيزة القاهرة هي أن السياسة لم تتدخل في حرية نشـــاط المجموعات الدينية وأن التشريع الإسلامي لم يغلق دون أهل الذمة أي باب مـــن أبواب الأعمال. فالحركة التجارية ظلت قائمة حول البحر الأبيض المتوسط على يد ممارسيها القدماء التجار البارزين اليهود والمسيحيون ,الذين استفادوا من ســـلام الإسلام وحمايته فرحلوا آمنين بين إسبانيا والصين سالكين طرقا مختلفة لا يعترض سبيلهم عائق ولا قيد عدا ضريبة رمزية تدفع مرة واحدة في السنة بمقدار العشـــر[1]. كما أن شؤون الزراعة والصناعة ظلت هي الأخرى بأيدي الأهالي من الذميين ولقد تم حسب ما بينته تلك الوثائق إحصاء ما لا يقل عن (260) حرفة يدوية كان اليهود يحترفونها في أماكن إقامتهم بمدن شمال إفريقية[2].

ومن الحرف التي اختص أهل الذمة الاشتغال بها ببلاد المغرب، وبالدرجة الأولى الـــيهود الصـــناعات النســـيجية، يأتي على رأسها غزل الحرير وصباغته. وســـاعدهم على النجاح في هذه المهنة سهولة حصولهم على المواد الصبغية الأولية مـــثل الشـــب والنيلة والقرمزي والزعفران التي كانوا يحصلون عليها من مصر وسوريا وآسيا الصغرى. أين كان بقيم إخوان لهم في شكل جماعات إقليمية بهذه المـــناطق وربما كانون يمارسون المهنة نفسها أو يشتغلون بالتجارة[3]. وطور اليهود مهنة الصباغة واحتكروها على امتداد أقطار المتوسط حتى صارت لصيقة بهم وقيل وقـــتها: إن الـــيهودي حتى ولو كان وحده في بلد ما فإنه سيشتغل لامحالة بهذه

[1] Louis Robinowicz. *Jewish Merchant adventures*, London, 1948, p. 113.
[2] S.D. Goitein: « The Main industries.., p. 172- 37.
[3] كاهن كلود: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية.مترجم ، سينا للنشر, ط1، 1995، ص 30.

الصـــناعة[1]. وإلى ذلك أشارت مصادر إسلامية من العصور الوسطى من أن لهذه الحـــرفة أي (الصباغة) أسرار لا يعرفها إلا اليهود[2]. ومع ازدياد الطلب على هذه المنســـوجات الحريرية والصوفية الزاهية الألوان بين أقطار ضفتي المتوسط، ازدادت معها الحاجة إلى فتح المزيد من المصانع التي كفلت الشغل لآلاف من المواطنين ببلاد المغرب، فتحقق بذلك الرخاء والازدهار. واشتهرت زمن الزيريين مدن مثل قابس وصـــفاقص وسوســـة والقيروان وبجاية بما انتجته من أنواع المنسوجات[3]. وفاقت أقمشـــة صـــفاقص من حيث الجودة أقمشة الإسكندرية[4]. وبلغ الطلب على هذه الصناعات النسيجية المغربية حدا صار معه حكام شمال أفريقيا يرسلونها كهدايا ثمينة إلى أمـــراء وملـــوك الدول الأوروبية الذين صاروا يفضلونها على سائر الثياب في ألبســـتهم[5]. كمـــا أعجـــب بها كثيرا المحاربون الصليبيون أثناء الحملات الصليبية واجتلبوا منها كميات كبيرة أثناء عودتهم إلى ديارهم[6]. وعن صادرات بلاد المغرب مـــن هذه المصنوعات النسيجية المتطورة خلال هذه الفترة يحدثنا المقديسي الذي

---

[1] آدم متز: المرجع السابق، ص 87.

[2] نفســـه.

[3] Goitein, S, D : *A Mediterranean Society* , vol, 1 *Economic Foundations* , University of California Press 1967, p. 84.

[4] لويس ارشيبالد: المرجع السابق، ص 329.

[5] داود أبو العافية: "دور التجارة في الاتصال الإسلامي المسيحي خلال العصور الوسطى"،من كتاب: التأثير العـــربي في أوربا العصور الوسطى مترجم ، ط، ت. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية , مصر، ص 19-20.

[6] ســـتانفورد كـــب: المسلمون في تاريخ الحضارة، مترجم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 102

عـــاش في القرن العاشر الميلادي : "تحمل من برقة ثياب الصوف والأكسية، ومن صقيلية الثياب المقصورة الجيدة ..."[1] أما البكري الذي جاء من بعده، فيأكد هذه الحقيقة وهو يتحدث عن صناعة قابس الحريرية .قائلا: "...وحريرها أطيب الحرير وأرقه وليس في عمل إفريقية إلاّ في قابس ..."[2]

وسرعان ما غدت هذه الصناعات جزء ا من التجارة المنتظمة التي تمت بين الموانـــئ الإسلامية والمدن الأوروبية. ومع ازدياد الطلب عليها لدى سكان أوروبا بدأت تتأسس بالمدن الإيطالية مصانع لتقليد تلك الألبسة الحريرية والقطنية الملونة . ثم مالبـــثت إن انـــتقلت هذه الصناعة إلى بقية المدن المجاورة بوسط وشمال أوروبا وســـاهمت في دفع النهضة بها[3]. ولا تزال أسماء هذه الأقمشة والألبسة الإسلامية الراقية يشار إليها في قواميس اللغات الأوروبية الحديثة مثل التفتشيTefftas) وهو (نسيج حريري رفيع) و الجبة (La jupe) والطرحة (La tare) وغيرها[4].

كمـــا تخصـــص أهـــل الذمة في بلاد المغرب في الصناعات المعدنية بكل أشـــكالها، وبخاصة صناعة الحلي الذهبية و الفضية التي حققوا من ورائها ثروات طائلة. وظل اليهود يحتكرون فنون هذه الصناعة الرائجة في الحواضر الكبرى ببلاد

---

[1] المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. دار احياء التراث , ط1, 1987 ص 226

[2] البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ,ط دي سلان ,الجزائر ،1911 ص17.

[3] هنـــري برين: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، (الحياة الاقتصادية والاجتماعية)، مترجم، الهيئة . المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 139- 140 .. G. Le Bon, *op. cit.*, p 233

[4] Sigrid Hanke, *op. cit.*, p. 13-38.

-منتغمري واث : فضل الإسلام على الحضارة الغربية، مترجم، دار الشروق، 1983.ص 115-125.

المغرب حتى القرن الخامس عشر ميلادي وأقاموا لها الاسواق الموسمية فلقد أشار "برونشفيك – R Brunchwig وهو من المختصين في تاريخ الدولة الحفصية أنه : "كان يوجد بمدينة تونس سنة 1400م عدد كبير من صناع الصاغة اليهود بعضهم مازال حتى وقتنا الحاضر" ويضيف في هذا الشأن: "...وأنه كثيرا ما كانت تقع مشادات حادة في أسواق مدينة بجاية بين التجار اليهود الأهالي وإخوانهم في العقيدة من إسبانيا لأجل كسب الزبائن المسلمين[1]."

ومما ساعد على انتشار هذه الصناعة ورواج منتجاتها في الأسواق الداخلية والخارجية الإقبال المتزايد للتجار على شرائها والاستثمار في المتاجرة بها بسبب رخص أسعارها. ومن الممكن أن نتفهم سر الرخاء الذي ارتبط بهذه الصناعة في ربوع بلاد المغرب على الأقل حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. أنه تدفق معدن الذهب الثمين بلا انقطاع إلى حواضر بلاد المغرب بكميات كبيرة من بلاد السودان[2]. ولأجل التحكم في هذه التجارة الصحراوية أسس الخوارج الصفرية سنة 140هـ على حدود الصحراء مدينة سجلماسة التي أضحت مقصد التجار من سائر بلاد المغرب وغيرها لكثرة الذهب الوارد اليها حتى وصفت بأنها عاصمة الذهب[3] وقيل انه بات " التبر بها أمكن منه بغيرها لكونها بابا لمعدنه."[1]

---

[1] *La Berberie orientale sous les Hafsides*, T1, p 409.

[2] لمبار، الذهب الإسلامي من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر الميلادي". من كتاب بحوث في التاريخ الاقتصادي)، ترجمة تقيق إسكندر، مطابع دار النشر للجامعات المصرية ،القاهرة،1961،ص 82

[3] مالك كوك :الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة، مترجم، الدار البيضاء ، 1390هـ، ص9.

والصـــورة التي وصلتنا عن الرخاء الذي غمر منطقة شمال إفريقيا زمن الزيريين بقلم أحد أبناء هذه المنطقة المنصفين لأصدق دليل على ما بلغه ملك آل زيري من الازدهار ووفرة الإنتاج أو حسب ما جاء في وصف العلامة ابن خلدون: "واستمر ملـــك المعز بن باديس بإفريقية والقيروان وكان أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية وأشرفه وأبدخه"[2].

ولقد تبين من خلال مشاهد النهضة الاجتماعية التي وصلتها منطقة بلاد المغـــرب الإسلامي خلال القرنيين التاسع والعاشر الميلاديين، صحة التـــأكيد على أن الحرف اليدوية لم تكن تخضع لقوانين خاصة وليست حكرا على فئة اجتماعية معينة. إنما كان هناك مجال فسيح لممارسة النشاط الاقتصادي بكل حرية. وأحسن مثال على ذلك, ما كشفت عنه وثائق الجنيزة عن قيام بين الحين والآخر، شراكة ناجحة في ميدان الصناعة بين رجال أعمال مسلمين و آخرين من أهل الذمة يصل عـــدد المستثمرين فيها أحيانا خمسة أشخاص و يتقاسمون الفوائد كل حسب نسبة مساهمته في رأسمال الشركة[3].

وإذا عـــدنا إلى النشـــاط التجاري فإننا نجد أن دور الأقليات الدينية في تدعيم هذا القطاع وازدهاره هام أيضا خصوصا إذا علمنا أن الفتوحات الإسلامية الـــتي تمـــت في زمن قياسي لم تحدث انقطاعا في مجرى الحياة العامة لدى مختلف

---

[1] الاستبصـــار في عجائـــب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، ص 202.

[2] Ibn Khaldoun: *Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale*, trad,w. G de Slane, rééd,, Alger.Berti, 2003, p 238.

[3] S.D. Goitein: *The Main industries*, p. 175- 78.

الشـــعوب التي طلتها عملية الفتح، و لم يترتب عنها توقف أو انقطاع في الحركة التجارية بموانئ حوض البحر المتوسط. بل استمرت شبكات الاتصالات التجارية وهي هياكل حيوية في نشاطها المعتاد، كما استمر الدينار البيزنطي الهرقلي متداولا على نطاق واسع حتى نهاية القرن الثامن ميلادي[1].

وكان لامتداد السيادة الإسلامية إلى شمال إفريقيا واستماله قبائل البربر إلى عقيدتهم قد هيأ للمسلمين السيطرة على أهم مصدر من مصادر الذهب في العالم الـــذي غذى على الدوام تجارة البحر الأبيض المتوسط على مر العصور.. ألا وهو بـــلاد الســـودان . و ضمن للدولة الإسلامية مخزونا معتبرا من هذا المعدن الثمين ساعدها على سك عملات إسلامية ذات قيمة عالية اعترف بها العالم أجمع[2]. فعن طـــريق التبادل التجاري بين المغرب وبلاد السودان سيتدفق الذهب والعبيد السود والعـــاج وغيرها من السلع النادرة إلى موانئ البحر المتوسط ومنها ستشق هذه السلع الثمينة طريقها باتجاه المشرق وأوروبا.وغدا بذلك إقليم البحر المتوسط كله مجالا لتصدير بضائع المغرب سواء تلك التي يتم إنتاجها محليا أو التي يتم استجلابها مـــن جنوب الصحراء. وطبيعي أن تشكل هذه الحركة مصدر قوة وازدهار للحياة داخل بلدان المغرب العربي. إذ بلغت حصيلة الضرائب المفروضة على هذه التجارة السودانية وحدها في القرن العاشر حوالي 400,000 دينار سنويا[3].

---

[1] م. لمبار، الذهب الإسلامي من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر » .... ص 51

[2] ل ارشيبالد: المرجع السابق ص 331

[3] R. Lopez & I.w.Raymond: *Medieval Trade in the Mediterranean World*, N-york,p(27-29 .

على أن أكثر مظاهر هذه التجارة إثارة للانتباه، هو أن عملية نقل السلع عبر الطرق الخارجية وتوزيعها إلى مختلف المراكز والمدن قد تكفل بها منذ البداية و بنسبة معتبرة التجار اليهود والمسيحيون من أهل البلد، لما لهم من سابق خبرة في هذا الميدان منذ العهد الفينيقي والروماني.

ولا تزال أسباب عزوف العرب عن الاشتغال بنقل السلع والمغامرة بتوصيلها إلى الأسواق الأوروبية يعتريها الغموض. ففي حين رجح "كلود كاهن"- وهو خبير بشؤون العالم الإسلامي الاقتصادية في العصور الوسطى- أن يكون ذلك راجع إلى أنهم (أي العرب المسلمون) رأوا أن من مصلحتهم ترك عملية نقل السلع لغير المسلمين حتى تبقى أسواقهم مفتوحة أمام التجار الأجانب فتشكل بالتالي موردا هاما لجباية الضرائب والمكوس[1]. أرجع آخرون الأمر إلى اعتبار أن العرب الفاتحين لم يكونوا أصلا من رواد البحار لذلك تركوا ممارسة التجارة لمن كان بيدهم الإشراف عليها من قبل وهم المسيحيون واليهود. أما الأستاذ العلامة أبو الأعلى المودودي فقد استوقفته ،هو الآخر، هذه الظاهرة وذهب بشأنها مذهبا مخالفا. ونحن بدورنا نؤيد هذا الرأي ونعتبره أقرب إلى الصواب . فهو يرى أن سبب عزوف المسلمين في ذلك الزمان عن الاشتغال بالتجارة لأنهم كانوا جند محاربون منتظمون في سبيل نشر الإسلام وكسب ثواب الجهاد . فأضحت بذلك التجارة كلها بأيدي الذميين[2]. والأكيد أن مهمة نقل السلع من الموانئ المغربية إلى

[1] De Mas Latrie, *Relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations chrétiennes au Moyen Age*, Paris, 1865, p. 62.

[2] أبو الأعلى المودودي: حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية. نشر دار الفكر. ص 25.

أوربا على امتداد فترة العصور الوسطى قد تكفل بها في البداية، اليهود والمسيحيون من أهل البلد، لتنتقل بعد ذلك أي- منذ مطلع القرن الحادي عشر- إلى أيدي تجار المدن البحرية الإيطالية (أمالفي والبندقية وجنوة وبيزة)[1] .

ولقد ارتبط احتراف اليهود للتجارة العالمية بانتشار الجماعات اليهودية منذ القديم في مختلف أنحاء العالم واستقرارها بالموانئ والمراكز التي تمر بها قوافل التجار. وكان يعينهم على النجاح في التجارة مهارتهم في تعلم اللغات .وكذلك استضافة الحي اليهودي المتواجد في كل مدينة لأي تاجر يهودي غريب يقصد الديار. ويحدثنا ابن خرداذبه- صاحب البريد في الدولة العباسية- مع نهاية القرن التاسع الميلادي في كتابه المسالك والممالك[2]. عن التجار اليهود (الراذانية- Radanites)[3] الذين يتكلمون لغات عديدة ويتنقلون من إسبانيا وإيطاليا وبلاد المغرب إلى مصر والهند والصين دون أن تعترض طريقهم أية صعوبات. واختص هؤلاء اليهود إلى جانب نشاطهم المعتاد نقل مختلف السلع التجارية بين الموانئ والمدن المنتشرة على طول طرق التجارة الدولية الرابطة بين الشرق والغرب دون غيرهم في تجارة مربحة تمثلت في عملية الصيرفة والاتجار بالعملة وتقديم القروض مقابل فوائد باهظة.

---

[1] هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجم، ج I، القاهرة ،ص 115-7.

[2] تحقيق دوخوية، ليدن، 1889، ص 114-16.

[3] اختلف المؤرخون في تعريف هذا الاسم (الراذانية- Radanites) منهم من اعتبره تحريف لاسم (رودانس) و هو نهر الرون "" بأوربا، ومنهم من اعتبر الاسم مشتق من كلمة (رهدان) الفارسية، ومعناها: العارف بالطرق، أو الذي يجوب البلاد للمزيد، راجع:

R. Lopez,& W. Raymond : *Medieval Trade*, p. 29-31.

- هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ج I، ص 142.

وقد تمادوا في تعاطي هذه المهنة المربحة التي تنهى عنها وتحرمها الديانتين السماويتين المسيحية والإسلام لارتباطها بالربا لدرجة أن لفظ مرابي في العصور الوسطى صار يطلق سواء في أوربا أو في العالم الإسلامي على تاجر العملة[1] اليهودي.

كما استأثر أهل الذمة ببلاد المغرب والأندلس بالمتاجرة بسلعة أخرى بطل تعودنا على حسبانها في عداد السلع ألا وهي الرقيق بصنفيه الأبيض والأسود. ومن المعلوم أن هذه السلعة تندرج ضمن محتجات المجتمعات المتحضرة في ذلك الوقت. فالنهضة الاقتصادية التي عرفتها مدن بلاد المغرب والأندلس قد ولدت الحاجة إلى التزود باستمرار بالأيدي العاملة الرخيصة. كما استلزمت العادة في ظل هذا الازدهار والرخاء الاجتماعي أن تتهيأ بلاطات الملوك والأمراء وبيوتات السادة والأكابر بالجواري والغلمان. واشتهرت منطقتان بتزويد المغرب و الأندلس مما كانوا يحتاجون إليه من العبيد وهما: أوروبا الوسطى والشرقية أو بلاد الصقالبة كما تعود المسلمون على تسميتها ، وإفريقيا السوداء[2] . فمن المنطقة الأولى كان يحترف النخاسة اليهود ينقلون العبيد إلى مدينة "فيردان-(Verdin)على الحدود الشرقية الفرنسية التي كانت تشكل مستودعا هاما لتجميع العبيد , ومنها يتم نقلهم إلى ناربون بجنوب فرنسا وإلى قطلونيا بإسبانيا أين يقوم أخصائيون يهود

[1] Cl. Day: *Economic developpement of Europe*. N.york, 1942- p 60 ; Konight , M.M :*Economic history of Europe*, 1928, p 116.

[2] Encyclopédie générale de l'islam, T1, pp (119-20) ; Ch-E. Dufourq,: *La vie quotidienne dans l'Europe médiévale sous domination arabe*, Paris, 1978. p. 129.

بعملية خصي الذكور منهم. ثم بعد ذلك يتم توزيعهم إلى أقطار المغرب والمشرق[1]. غير أن الملاحظ عن هذه المنطقة المشهورة في تصدير العبيد قد بدأ معينها في النضوب خلال القرن الحادي عشر بسبب اعتناق الصقالبة للمسيحية. أما منطقة إفريقيا السوداء فقد ضلت تزود بلدان المغرب الإسلامي بالوصفان والأماء على مدى طول فترة العصور الوسطى[2]. ومن الراجح أن يهود مغاربة مارسوا مهنة الخصي المشئومة على الرقيق الأسود في كل من وارجلان وزويلة التي كانتا مركزا لهذه التجارة.

غير أن أيام العز والأمن والاستقرار والرخاء التي نعمت بها الأقليات الدينية في بلاد المغرب والأندلس , والنشاط الاقتصادي المزدهر المربح الذي مارسته هذه الفئات على مدى عهود طويلة من الزمن، قد أخذت في التدهور والأفول منذ مطلع القرن الحادي عشر, بسبب الكوارث التي حلت بمنطقة غرب المتوسط وما ترتب عنها من تحولات خطيرة. فعندما ارتحل الفاطميون عن المغرب واستقروا في مصر خلفهم على عاصمتهم المهدية بإفريقية أسرة بربرية من صنهاجة و لم تفلح هذه الأسرة الجديدة في فرض الأمن والولاء لأقطار بلاد المغرب وكانت النتيجة أن انقسم البيت الزيري على نفسه عندما خرج أولاد عمومتهم (بنو حماد) عن الطاعة واستقلوا بالمغرب الأوسط. ثم سرعان ما وقعت الخصومة بين" والي القيروان

---

[1] Lévi-Provençal : *L'Espagne musulmane au X^e siècle, institutions et vie sociale*, Paris ,1932, p. 191-3.

- م لمبارد: الإسلام في مجده الأول (القرن 8-11م) ترجمة وتعليق اسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1979، ص 288-300.

[2] منتغمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص 32.

المعـــز بن باديس" وبين الخليفة الفاطمي "المستنصر" بسبب توقف الإمارة الزيرية عـــن الخطبة للأئمة الشيعة. فكان رد فعل الخليفة أن سلط على بلاد المغرب قبائل الـــبدو الرحل من بني هلال وبني سليم. كانت قد هاجرت أصلا من الحجاز إلى صعيد مصر والصحراء. وفي بضع سنين راحت هذه القبائل تهلك الزرع والضرع وتخرب المدن والموانئ، مما أوقع البلاد في حالة من الفوضى والاضطراب الدائمين[1]. وأدت هـــذه الحال إلى تعطيل الأنشطة الاقتصادية وتوقفت التجارة بسبب انقطاع الطـــرق وفقدان الأمن بها وخاصة طرق الصحراء الكبرى التي كانت تمول ملك الفاطمـــيين والزيريين بالذهب السوداني[2] وأخذ التجار وأصحاب الثروة على إثر ذلك يبحثون عن مراكز آمنة ينقلون إليها أعمالهم ويستثمرون فيها رؤوس أموالهم ومهـــاراتهم فانـــتقلت عائلات بأكملها من بلاد المغرب إلى مصر وجنوب إيطاليا وبـــلاد الشـــام. ولقد احتوت وثائق الجنيزة بالقاهرة وقتذاك على أسماء لعائلات كـــثيرة من أصول مغربية مثل: الأندلسي، الفاسي، التيهرتي الصقلي، الطرابلسي، وغيرها[3].

وكان أول من استفاد من هذا الوضع المتدهور الذي تردت فيه منطقة بلاد المغرب، منذ نهاية النصف الأول من القرن الحادي عشر، هي مدن إيطاليا البحرية وفي طليعتهم جنوة وبيزا اللتان اتفقت جهودهما وبتحريض من البابوية على إعلان

---

[1] E. Mercier: *Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale selon les documents fournie par les auteurs arabes*, Alger , p. 149- 167.

[2] Henri Terrasse, *Islam et Occident méditerranéen de la conquête aux Ottomans*, Paris, 2001, p. 249.

[3] جويتان س: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تعريب عطية القومي، الكويت، 1980، ص. 229.

الحرب على سواحل بلاد المغرب وجزائر المتوسط. فغزوا مدينة المهدية سنة 1087م ونهبوها وأجبروا حاكمها تميم بن المعز بن باديس على دفع فدية لقاء الانسحاب[1] ثم لم يمض وقت طويل حتى تمكن النورماند من طرد المسلمين من جزيرة صقلية أعادوها إلى كنف المسيحية. فكانت نتيجة هذه الأحداث إيذانا ببدء انتقال مركز السيادة والنفوذ على مياه حوض غرب المتوسط تدريجيا من أيدي المسلمين إلى أيدي أعدائهم أهالي الغرب اللاتيني.

ولكن الخطر الذي سيقضي نهائيا على نشاط أهل الذمة ببلاد المغرب سوف يأتي لاحقا، مع قيام حركة البدو المسلمين المتعصبين. ممثله بداية الأمر، في جماعة صنهاجة الملثمين الذين يذكر هم التاريخ باسم (المرابطين). ثم فيما بعد مع بدو مصمودة (الموحدون). فهؤلاء و أولئك لم يظهروا أي تسامح تجاه أهل الكتاب الذين اتهموهم بالتواطؤ مع الصليبيين. فضيقوا عليهم وأثقلوا كاهلهم بالضرائب. وهناك أمثلة على ما جرى في تلك الحقبة.. ففي عهد حكم يوسف بن تاشفين فرض على اليهود في جميع أنحاء المملكة ضريبة ثقيلة لتدعيم مركزه. ويصور ابن عذارى تلك الحال قائلا:" وفيها أي سنة (464هـ) افترض على اليهود فريضة ثقيلة في جميع طاعته اجتمع له فيها مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار[2].

[1] أرشيبالد: المرجع السابق، ص 372-376.

[2] ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج4، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ص 120.

أما على عهد الموحدين فقد واجه أهل الكتاب مواقف أصعب من تلك التي عانوها في عهد المرابطين خصوصا في فترة حكم الخليفة عبد المؤمن بن علي. إذ تشير الروايات إلى أنه خيرهم بين الإسلام أو ترك البلاد أو القتل[1]. وقد غادر عدد كبير من اليهود والنصارى على إثر ذلك البلاد حفاظا على حياتهم و لم يبق منهم إلا من عجز فأظهر الإسلام وأسر دينه. وكان ممن أفتى وقتها بالتقية والكتمان ومارسهما لتجنب الموت. العالم اليهودي موسى بن ميمون قبل أن يهاجر إلى مصر ويستقر بها[2].

وفي إشارة إلى تصرفات الخليفة عبد المؤمن مع أهل الذمة، كتب عبد الواحد المراكشي يقول: "و لم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة، ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة، إنما اليهود عندنا يظهرون الإسلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن جادين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم"[3].

---

[1] وول ديورنت، قصة الحضارة، ج3، مجلد4، ص 120.

[2] نفسه، ص 121.

[3] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق سعيد العريان، القاهرة، 1949، ص 305

-- لما غزا عبد المؤمن بن علي تونس تظاهر الكثير من اليهود و النصارى بالدخول في الإسلام حتى إذا ما سقطت الدولة الموحدية، عاد اليهود و النصارى إلى ملتهم التي فطروا عليها. وقد وجد ليون الإفريقي في منتصف القرن السادس عشر الميلادي (1551 م) حارة لليهود بتونس كما كان ثم فندق بباب البحر، للمزيد، راجع:

H. R. Idris. *La Berbérie, op. cit.*, vol. II, p. 796.

وخلاصـــة القول أن الفتوحات الإسلامية خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين لم تقتصر على مجرد إنشاء إمبراطورية واسعة امتدت من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي، ولكنها أقامت في كافة البلاد المفتوحة عالما اقتصاديا نموذجيا من حيث النشاط والازدهار والتكامل. وستضل صورة العالم الإسلامي هذه حتى نهاية القرن الحادي عشر صورة مجتمع متعدد الطوائف بشكل متميز. فالإسلام وإن ساد وسيطر سياسيا إلاّ أنه احتفظ بداخله بنسبة هائلة من المنتسبين لمختلف الأديان دون حرج وذلك في تآلف من المستحيل أن نجد له مثيلا آنذاك في مجتمعات أخرى.